الماء في الفكر الرافدي القديم

د. حسان عبد الحق*

الملخص

تناول البحث تأثير الماء في الفكر الرافدي القديم. يعتقد الرافديون أنه أساس الوجود، فمنه خلقت السماء والأرض والآلهة. وهو الذي جلب الحياة إلى الأرض الزراعية والبشر الذين كانوا يستخدمونه في حياتهم اليومية. فقد استخدم في التطهير والطب والفصل في الخصومات. أثرت استخداماته في المعتقدات الدينية، فعلى سبيل المثال كان التطهير بالماء واجبًا على من يزور المعابد لاعتقاد الرافديين أن الماء يطهر الجسد من الأرواح الشريرة. آمن الرافديون بأن الماء كان مدمرًا، أشاروا إلى ذلك في أساطيرهم التي تحدثت عن الطوفان الذي خرب بلادهم في عصر السلالات الباكرة.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

L'eau dans la pensée ancienne de la Mésopotamie

Dr. Hassan Abdulhaq [**]

Résumé

Cet article cherche à démontrer l'influence de l'eau sur les croyances anciennes de la Mésopotamie. Les mésopotamiens croyaient que l'eau était le principe de l'existence; de l'eau ont été créés le ciel, la terre et les divinités. L'eau est le principe vital de la terre agricole, outre ses différentes utilisations dans la vie de tous les jours. L'usage de l'eau est attesté dans les rituels de purification, dans la médecine et dans la résolution des conflits. Ses multiples usages ont influencé les croyances religieuses, à titre d'exemple, la purification à l'eau était obligatoire pour se rendre dans un temple, parce que cette pratique était censée débarrasser le corps des mauvais esprits. Les Mésopotamiens ont cru également en le pouvoir destructeur de l'eau, et l'ont démontré dans leurs mythes qui relataient le récit du déluge qui a affecté une grande partie de la Mésopotamie.

[**] Université de Damas, Faculté des Lettres et des Sciences humaines, Département d'Histoire.

تمهيد:

بحسب المعتقدات الرافدية القديمة الماء هوعنصر الخلق، خلق الكون والآلهة والإنسان، وهو الحياة، فبفضل نهري دجلة والفرات نشأت حضارة بلاد الرافدين واستمرت مدة طويلة من الزمن. لم تنحصر أهمية ماء هذين النهرين أو الماء بشكل عام في الزراعة، لا بل كانت له استخدامات نافعة أخرى انعكست على فكر الرافديين ومعتقداتهم، واختلطت بطقوس دينية متنوعة كانت تقام في المعابد، أو داخل المدن، أو على مقربة من الأنهار. غير أنه لم يظهر داومًا على هذه الصورة النافعة، فقد أعطته الأساطير الرافدية صورة أخرى، مناقضة لها، تُظهر دوره السلبي المدمر المتمثل بالأعاصير والفيضانات التي كانت تحدث في بعض السنين، وبالطوفان الذي حدث في إحدى السنوات جالبًا معه الدمار لمظاهر الحياة كلّها. أصبحت الصورتان الإيجابية والسلبية للماء تشغلان حيزًا في الفكر الرافدي، وأثرت في معتقدات سكان بلاد الرافدين، التي عالجناها من خلال العناوين التي سنطرحها.

أولًا: الماء هو عنصر الخلق وأساس الوجود:

حسب أساطير الخلق السومرية والبابلية تعدُّ المياه الأزلية (التي لا أصل لها) عنصر الخلق وأساس الوجود. تذكر الأساطير السومرية أنه من مياه البحر الأزلية (نامو) وُلد جبل كوني يمثل السماء (آن كعنصر مذكر)، والأرض (كي كعنصر مؤنث) متحدتين مع بعضهما. ونتيجة اتحادهما خُلق إنليل إله الهواء. قام هذا الأخير بفصل السماء عن الأرض، فحمل أبوه الإله آن السماء، في حين حمل هو الأرض. وبعد فصلهما خُلقت الكواكب والنجوم، وبرزت مظاهر الحياة على الأرض[1].

حسب أسطورة الخلق البابلية (عندما في العلى)، يتكون الماء من عنصرين، أحدهما مذكر يسمى الأبسو، ويمثل المياه الحلوة (العذبة)، والآخر مؤنث، يسمى تيامة، ويمثل مياه البحر المالحة[2]. ومن خلال الاختلاط بينهما المتمثل بالزواج بين الربة تيامة والإله آبسو ولد جيل من الآلهة[3]، ثم تلاه جيل ثانٍ، ثم جيل ثالث حتى زاد عدد الآلهة، وكثر ضجيجهم، فعزم والدهم الأبسو على قتلهم، لكن الآلهة أدركت ذلك فقتلته. حاولت زوجته الانتقام له، غير أن مردوخ الذي نُصب ملكًا على الآلهة الأخرى وقف لها بالمرصاد، وخاض حربًا ضدها فانتصر عليها وقتلها وشطر جسدها إلى شطرين، وجعل من الأول

[1]– علي، فاضل عبد الواحد: من سومر إلى التوراة، ط2، سينا للنشر، القاهرة، 1996، ص:194–195.

[2]– علي، فاضل عبد الواحد: ثم جاء الطوفان، سومر، المجلد (31)، 1975، ص: 16.

[3]– إلياد، مرسيا: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس، ج1، ط1، دار دمشق، 1986، ص: 94.

السماء، ومن الثاني الأرض[1]. مع اختلاف هذه الاسطورة عن نظيرتها السومرية، إلا أنهما تتشابهان في عدّهما الماء أساس الوجود، فمنه خلقت السماء والأرض (جبل كوني يخرج من الماء يمثل السماء والأرض، أو انشطار جسد تيامة {الماء المالح} إلى قسمين لتتشكل منه الأرض والسماء)، والآلهة التي أدارت شؤون الكون.

تناولت الأساطير الرافدية أيضًا مسألة خلق الإنسان مشيرةً إلى الماء كأحد العناصر التي خُلق منها. ورد ذلك في إحدى الأساطير السومرية، التي جاء فيها أن الربة نامو(أم الآلهة) طلبت إلى ابنها إنكي إله الماء أن يخلق عبدًا ليعدَّ الطعام للآلهة الجائعة، فأجابها بأن هذا الأمر ممكنًا على أن تأخذ كمية من الطين الموجود في المياه العميقة[2]. يمكن القول: إنَّ الإنسان–حسب المعتقدات الرافدية– خُلق من عنصرين رئيسيين الماء والتراب. وما يهم هنا الماء الذي كان أيضًا عنصرًا رئيسيًا–كما ذكرنا أعلاه– في خلق الكون والآلهة.

ثانيًا: الماء مقدس تتحكم به الآلهة:

نظر الرافديون إلى الماء نظرة قداسة لأهميته في حياتهم، ولكونه نعمة وأساس الحياة، ولأنه آتٍ من عند إله السماء. فهو حسب الفكر الرافدي مني إله السماء الذي يهطل على الأرض فيلقحها ويخصبها[3]. خصصت له الآلهة التي كانت تتحكم به لصالح الكائنات الحية، أو ضدها. انعكست صفة القداسة على مختلف الطقوس الدينية التي كان الرافديون يستخدمونه فيها، كطقوس التطهير، وسكب السائل المقدس. ويحفل التاريخ الرافدي بالعديد من الأمثلة على تقديسه، من أهمها تقديس سكان بلاد الرافدين لنهري دجلة والفرات اللذين كانا يعدّان شريان الحياة ونبع الخصوبة فيها، وخاصة نهر الفرات الذي كان بمقدوره إرواء مساحة أكبر من دجلة[4]. ومن الأدلة على تقديس مياه الأنهار الأسماء التي شاعت قديمًا في العالم الرافدي، والتي تحمل معاني تشير إلى ذلك مثل النهر ربي والنهر خالقي وعبد النهر[5].

ومن أهم الآلهة التي كانت تختص وتتحكم به الإله إنكي إله المياه العذبة الذي كان يسيطر على الآبسو (في السومرية) أو الأبزو (في الأكادية)، والمقصود بها مياه المحيط

---

[1]- علي، فاضل عبد الواحد: من سومر إلى التوراة، ص: 195.

[2]- علي، فاضل عبد الواحد: من سومر إلى التوراة، ص: 195.

[3]- الشواف، قاسم: ديوان الأساطير، سومر وأكد وآشور، ط1، ج1، دار الساقي، بيروت، 1996، ص: 23.

[4]- شهد وهد، جاسم: الزراعة في العصر البابلي القديم (2004–1595)، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد (11)، العدد (3)، 2008، ص: 43.

[5]- الأسود، حكمت بشير: قداسة الماء ورموزه في حضارة بلاد الرافدين، ص: 4، http://www.abualsoof.com/inp/view.asp?ID=595

العذبة المتجمعة في جوف الأرض[1]، التي اتخذها هذا الإله مسكنًا له[2]. يقع معبده الرئيس في إريدو، ويطلق عليه اسم بيت أبزو أو بيت أنجور.

ومن الآلهة الأخرى الإله إنبيليلو، إله المياه والحقول السومري، هو المسؤول عن نهري دجلة والفرات[3]، ومراقب الأقنية، ووكيل إنكي. وبحسب الأكاديين هو ابن الإله إيا (إنكي السومري)، وتسميه قائمة أسماء الآلهة المعروفة ب (آن–أنوم) حدد البابلي[4]، أي أنه يطابق إله الطقس حدد أو أدد. وتصفه أسطورة أنوما إليش بأنه يعرف أسرار الماء والأنهار الجارية تحت الأرض[5].

وهناك أيضًا نينا ابنة إيا ربة الينابيع والأنهار والأمطار، يُعتقد أنها هي نفسها التي تصورها المشاهد الفنية حاملة بين يديها إناءً[6]، الذي يسمى وعاء الماء الفوار، يرمز إلى الحياة، ظهر منذ العصر السومري الباكر في العالم الرافدي، واستمر حتى مراحل متأخرة.

ولآلهة الطقس دور كبير في تزويد الكائنات الحية بماء الحياة، فهي التي تحدث العاصفة وتُسقط الأمطار التي تغذي الينابيع والأنهار والبحيرات وتحافظ عليها. إله الطقس عند السومريين هو أشكور، يقابله في الأكادية أدد، استمرت عبادته في الحضارتين الآشورية والبابلية، وتبناه الآراميون تحت اسم هدد[7]. الذي كان معروفًا بين الناس باسم (وِرْ) و(مِرْ)، ومعنى كلمة الوَرهْ في اللغة العربية: السحاب الكثير المطر، أما كلمة المرمرة تعني المطر الكثير[8].

ثالثًا– الماء أساس الحياة وجالب الخصوبة:

يمثل الماء الحياة، ويبعثها ويجددها سنويًا بإرواء الأرض العطشى[9] بالهطولات المطرية والثلجية، فتنمو النباتات فيها، ليأكل الإنسان والحيوان من خيراتها. ولهذه

---

[1]– نعمة، حسن: موسوعة ميثولوجيا الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994، ص: 83–129.

[2]– ادزارد، د؛ بوب، م. ه؛ رولينغ، ف: قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية)، في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)، تعريب: محمد وحيد خياطة، ط1، حلب، 1987، ص: 60.

[3]– الأسود، حكمت بشير: المرجع السابق، ص: 4.

[4]– المرجع نفسه: ص: 97.

[5]– مرعي، عيد: عبادة آلهة الخصوبة في الشرق القديم، وزارة الثقافة، دمشق، 2016، ص: 37.

[6]– الأسود، حكمت بشير: المرجع السابق، ص: 4.

[7]– نعمة، حسن: المرجع السابق، ص: 136.

[8]– ادزارد، د؛ بوب، م. ه؛ رولينغ، ف: المرجع السابق، ص: 78.

[9]– سيرنج، فيليب: الرموز في الفن– الأديان–الحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، ط1، دمشق، 1992، ص: 351.

الهطولات أهمية كبرى في تغذية الأنهار والينابيع التي كان الناس يعتمدون عليها في حياتهم اليومية (الشرب، والتنظيف، والطبخ، والاستحمام...الخ).

1- ماء الحياة والملوك:

شُغل الملوك الرافديون بمسألة الماء، لأهميته بشكل عام، ولدوره في جلب الخصوبة إلى الأرض الزراعية وبعث الحياة فيها لتنتج الغلال التي تؤمن أقوات شعوبهم. وترجموا هذا الاهتمام بعدة طرائق، تتمثل إحداها في شق القنوات وجر المياه لري المحاصيل، ينطبق ذلك على ما قام به كثير منهم (لا مجال للتفصيل)، من بينهم أورنامو(2112-2094 ق.م) مؤسس سلالة أور الثالثة، الذي شق قناة مائية لجر المياه من الضفة اليمنى لنهر الفرات إلى حقول معبد إنليل الواقعة داخل المدينة لسقايتها[1]. وهناك من لجأ لجأ إلى الفن معبرًا عن ذلك بطريقة رمزية، مثل جوديا (2143-2124 ق.م) حاكم سلالة لاجاش الثانية، الذي صوره أحد التماثيل في وضعية الوقوف حاملًا بيديه وعاء الماء الفوار الذي كان يرمز إلى الخصوبة والحياة **الشكل (1)**.

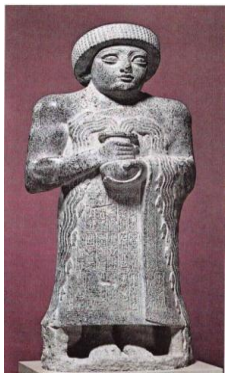

الشكل (1): جوديا يحمل وعاء الماء الفوار رمز الحياة

(عن http://www.a-olaf.com/~olaf/researches/sumer/Gudia.jpg)

الهدف من هذا المشهد رغبته في إذاعة فكرة بين رعاياه أنه هومن يجلب ماء الحياة إليهم بتأييد ودعم من الآلهة، لأن هذا النوع من التماثيل كان يوضع عادة في المعابد ليتقرب أصحابها من الآلهة، ولكي يحصلوا على دعمها ورضاها وتأييدها. اتبع مللك ماري (زمري ليم أوشامشي أدد) الأسلوب نفسه لكن بطريقة مختلفة، ففي المشهد السفلي

[1]- Jacobsen, T: "The Waters of Ur", Iraq, Vol (22), 1960, P: 182.

من لوحة التنصيب المكتشفة في قصر ماري الملكي (تنصيب الملك من قبل عشتار)، توجد ربتان متقابلتان (آلهة الماء[1])، تحمل كلتاهما وعاءً كالمزهرية، يتدفق منه الماء كالشلال[2]. على خلاف جوديا، لم يُجّسد ملك ماري حاملًا الوعاء بيديه، بل أوكلت هذه المهمة إلى آلهة الماء، ومع الاختلاف بين المشهدين إلا أن الهدف واحد، الذي يتمثل برغبتهما في إذاعة فكرة بين شعبيهما على أنهما يجلبان ماء الحياة لهما بدعم من الآلهة[3]. الطريقة الثالثة تتجلى بالطقوس الدينية التي كانت تقام لترسل الآلهة أمطار الخير، فها هو الملك الآشوري شروكين الثاني (722–705 ق.م) يقيم الصلوات طالبًا من الإله أدد إله الطقس أن يرسل المطر من السماء لترتوي الأرض وينبت فيها الحب والمروج الخضراء التي ترعى فيها الماشية[4].

أدَّت الظروف الطبيعية في بلاد الرافدين دورًا كبيرًا في جذب الملوك إلى الماء، والمقصود هنا كثرته ووفرته (دجلة والفرات ورافدهما، والأمطار التي كانت تتساقط بغزارة بشكل خاص في المنطقة الشمالية). فلولا هذه الوفرة ما تمكنوا من إقامة مشاريع الري التي جلبت الحياة والخصب إلى الأرض الزراعية. انعكس هذا على الفكر الديني، الذي عدَّ ري الأراضي الزراعية عملًا إلهيًا أيضًا[5]، اصطبغ بالصبغة المقدسة هو الآخر.

2– ماء الحياة ودوره في إحياء الأرض الزراعية وجلب الخصوبة إليها:

تعدُّ الزراعة من أهم النشاطات الاقتصادية التي عرفتها بلاد الرافدين لامتلاكها كميات وفيرة من المياه (دجلة والفرات). وممَّا يدلُّ على أهميتها ومكانتها احتواء المشاهد الفنية على رموز كثيرة لها صلة بالأرض الزراعية والإنتاج الزراعي (سكب الماء، والأنهار، والنباتات، وسلال الثمار، والأشجار المثمرة، وتذرية سيقان القمح والشعير بهدف الحصول على الحبوب). لم يهتم الرافديون بها لتوافر الظروف الطبيعية الملائمة

[1]– عبد الحق، حسان: المؤثرات الدينية في الفن في الفترة الممتدة من بداية عصر الإحياء السومري إلى نهاية العصر البابلي القديم 2144–1580 ق.م، مجلة دراسات تاريخية، العددان (124–123)، جامعة دمشق، 2013، ص: 38.

[2]– لويد، سيتون: آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي، ترجمة: محمد طلب، ط1، دار دمشق، 1992–1993، ص: 230 والشكل 113.

[3]– Margueron J. C: *Mari – Métropole de l'Euphrate*. Editions Picard et ERC, Paris, 2004, P: 478.

[4]– Rander. K, "How did the Neo–Assyrian King perceive his Land and its resources" *in Rainfall and Agriculture in Northern Mesopotamia–Proceeding of Third Mos symposium* (Leiden 1999), Pihans, vol(88), 2000, P: 164.

[5]– شهد وهد، جاسم: المرجع السابق، ص: 43.

لها فحسب، بل لأنها تمثل المصدر الغذائي الرئيسي لهم، فقد كانت تؤمن للناس الخضار والفواكه التي يتغذون عليها في مواسمها، والحبوب التي كانت تحفظ في المخازن على شكل مؤن.

انعكست علاقة الماء بالزراعة على المعتقدات الدينية، وتُرجم ذلك بطريقة أدبية اسطورية، تناولت الجهود التي كانت تقوم بها آلهة الماء لتزويد الأرض الزراعية بماء الحياة. ومن أهم هذه الآلهة الإله إنكي الذي كان يسمح لماء الحياة بالتدفق بغزارة لحماية الأرض الزراعية من الجفاف[1]، وجلب الخصوبة إليها. تناولته الأساطير القديمة متحدثةً عن دوره هذا، فقد كان يملأ الجداول والأنهار كنهري دجلة والفرات بماء قضيبه (إشارة إلى الماء)، لسقاية الحقول العطشى التي تمتد على طول هذين النهرين[2].

وعندما وجه إنكي الموقر نظره إلى الفرات
رفع نظره كأنه ثور متلهف،
نصّب قضيبه ودفّق منيه.

وحسب الأسطورة[3] هومن أحيا دلمون[4] بمدها بالمياه العذبة الحلوة، وغمر أماكن زراعة القصب المنتشرة فيها بمنيه (المقصود هنا الماء). وكان قد كلف أوتو إله الشمس بذلك آمرًا إياه بتزويد أراضيها بالمياه الحلوة لاستصلاحها وجعلها قابلة للزراعة:

من مقره السماوي أخرج أوتو المياه الحلوة من الأرض
من فوهات تنبعث منها.
جعلها تصل إلى صهاريج متسعة.
فاستهلكت المدينة منها كميات وافرة
بلد دلمون استهلكتها بكميات وافرة
فتحولت آبار مياهه الحامزة إلى آبار مياه حلوة
وجلبت حقول حصاده، كميات كبيرة من الحبوب![5]

1- علي، فاضل عبد الواحد: ثم جاء الطوفان، ص: 18.

2- الشواف، قاسم: المرجع السابق، ص: 26.

3- يعود هذا النص إلى بداية الألف الثاني ق.م، ومن المحتمل أنه تناول أحداثًا واقعيةً وعلاقات اقتصادية بين دلمون وسومر تعود إلى الألف الثالث ق.م، الشواف، قاسم: المرجع السابق، ص: 26.

4- هي المنطقة التي تشمل جزر البحرين وفيلكا والشاطئ المجاور لهما، المرجع نفسه، ص: 36.

5- المرجع نفسه: ص: 28.

تحدث النص في مقطع آخر عن دور إنكي في خلق القصب والنباتات الأخرى في أراضي دلمون من خلال تزويد أماكن نموها بالماء، الذي رُمز إليه بماء قضيبه:

ملأ بماء قضيبه المجاري جمعاء (المقصود هنا إنكي)
وبماء منيه الغزير، أغرق منابت القصب،
ممزقًا بقضيبه الكساء الذي كان يستر حضن الأرض[1]!

يشير المقطعان السابقان إلى دور الآلهة بتزويد الأراضي الزراعية بماء الحياة، ربما كانت تتميز هذه الأراضي بخصوبة تربتها لكنها كانت تفتقر إلى ماء الأمطار، فأجريت مشاريع الري متمثلةً بحفر الآبار، وشق القنوات والجداول لسقايتها بهدف الحصول على غلاتها التي كانت تزود السومريين بالحبوب كغذاء لهم ولحيواناتهم، وبالقصب الذي كان يُستخدم في بناء البيوت، وكعلف للحيوانات أيضًا.

أشارت أسطورة أخرى إلى أهمية الماء بالنسبة إلى الأرض الزراعية، لكن بأسلوب مغاير لنظيره المتبع في أسطورة إنكي. تتناول الأسطورة الحالية الزواج المقدس بين دموزي (تموز) وإنانا (عشتار). يرد في أحد المواضع رغبة عشتار بالعلاقة الجنسية مع تموز، التي كانت ترمز إلى عودة الحياة والخصوبة إلى الأرض الزراعية في فصل الربيع:

من أجلي فرجي
من أجلي، أنا العذراء، من أجلي، من يحرثه لي؟
فرجي، أرض مروية، من أجلي2

باختصار شديد، يرمز الفرج هنا إلى الأرض الزراعية المشبعة بالماء، الذي لا يمكن الاستغناء عنه لنمو النباتات والحصول على حصاد وفير. هذه الرمزية التي تبناها الرافديون تستند إلى معتقدات آمنوا بها تقوم على أساس تشبيه الأرض الزراعية بالأرحام، فكما تُخصب الأرحام بماء الرجل لتحمل، تُخصب الأرض بماء الأمطار والأنهار (مني الآلهة) كي تنبت بها الزروع[3]. يمكن استيعاب وتوضيحه هذا المعتقد بشكل أكبر من خلال النص الآتي:

1– الشواف، قاسم: المرجع السابق، ص: 29.

2– Kramer S.M: "Le Rite de Mariage Sacré Dumuzi–Inanna", *Revue de l'histoire et des religions*, Volume (181), Numéro (2), P: 123.

3– الشواف، قاسم: المرجع السابق، ص: 23.

السماء، الإله الرائع الجمال، غرس
في الأرض العريضة ركبتيه
وسكب في رحمها بذرة الأبطال
الأشجار والمقاصب.
الأرض الطرية، البقرة الخصبة تشبعت
بمني السماء الغني،
وبالفرح ولدت الأرض نباتات الحياة1

فضلًا عن دور الأدب في إظهار أهمية ماء الحياة في الزراعة، تجسد القطع الفنية الكثير من المشاهد التي ترمز بشكل خاص إلى ذلك، وإلى الحياة بشكل عام. يظهر هذا جليًا في نصب أورنامو مؤسس سلالة أور الثالثة، وفي طبعة ختم الملك أوزو رواسو، أحد ملوك إشنونا في بداية القرن التاسع عشر ق.م. ففي كلتا القطعتين يظهر كلاهما واقفًا أمام إله يجلس على عرشه، يفصل بينهما وعاء كبير في داخله نبتة، ويحمل الملك بيده إناءً يسكب منه الماء المقدس داخل هذا الوعاء لسقايتها **الشكلان (2–3)**. الرمزية واضحة جدًا: الماء هو الذي يخصب الأرض ويهب الحياة إلى النبات.

الشكل (2): أورنامو يسكب الماء المقدس في وعاء أمام إله القمر
(عن لويد، 1992–1993، الشكل 207)

1– الشواف، قاسم: المرجع السابق، ص: 21.

الشكل (3): أوزو رواسو يسكب ماءً مقدسًا في وعاء أمام أحد الآلهة
(عن عبد الحق، 2013، الشكل 3)

3- ماء الحياة وأهميته في حياة الكائنات الحية الأخرى:

فضلًا عن أهمية ماء الحياة في عالم النباتات والزراعة، أدرك الإنسان الرافدي أهميته في حياة الكائنات الحية الأخرى. عبر الرافديون عن هذا بالفن، ومن الأمثلة على ذلك إناء أوروك النذري العائد إلى عصر جمدة نصر (3100–2900 ق.م)، الذي نُقش على سطحه الخارجي عدة مشاهد موزعة على عدة حقول، تصور احتفالًا دينيًا بمناسبة الزواج المقدس بين إنانا ودموزي الذي كان يرمز إلى تجدد الخصب في الطبيعة. ما يهم هنا، المشهد السفلي الذي كان يجسد خطين متعرجين يرمزان إلى الماء بشكل عام[1] أو إلى نهري دجلة والفرات اللذين كانا يحافظان على حياة الكائنات الحية. لدينا مشاهد أخرى صورت الماء على أنه هبة من الآلهة للكائنات الحية. من بينها مشهدان يعودان إلى العصر الأكادي، نُقش كلاهما على طبعة ختم، يبرزان دور الإله إنكي في منح المياه العذبة، ماء الحياة للكائنات الحية. يظهر في المشهد الأول جالسًا على عرشه داخل معبد تحت الماء، وكان الماء يتدفق من كتفيه على شكل موجات[2] **الشكل (4)**.

1– سيرنج، فيليب: المرجع السابق، ص: 351.

2– ادزارد، د؛ بوب، م. هـ؛ رولينغ، ف: المرجع السابق، ص: 90.

الشكل (4): إنكي جالس على عرشه في معبد تحت الماء (عن http://www.abualsoof.com/inp/view.asp?ID=595)
المشهد الثاني يصوره واقفًا، يرافقه عدد من الآلهة، ويتدفق من كتفيه شلالان، يسبح السمك داخلهما الشكل (5).

الشكل (5): طبعة ختم تمثل الإله إنكي مع آلهة أخرى (عن لويد، 1992–1993، الشكل 100)

يُعتقد أن الماء الذي كان يتدفق من كتفيه في كلا المشهدين يرمز إلى نهري دجلة والفرات نبعي الخصب والحياة في بلاد الرافدين. رمزية الماء واضحة جدًا في هذا المشهد، إنه أحد العناصر الأساسية في الطبيعة، يمد الكائنات الحية بأسباب الحياة. نرجح أن يكون السبب في تصوير الأسماك مع الماء الرغبة في إظهار دور الماء الكبير في حياة الكائنات الحية، فكما هو معروف الأسماك بحاجة أكبر إليه مقارنة بغيرها من الكائنات الحية.

وهناك طبعة ختم أخرى تعود إلى العصر السومري الحديث، تُظهر الإله إنكي جالسًا على عرشه، يقف أمامه إله شفيع ماسكًا بإحدى يديه يد جوديا حاكم لاجاش بغية تقديمه لإنكي للحصول على شفاعته ومباركته والتقرب منه. يصور المشهد الإله إنكي حاملًا بيديه الاثنتين وعاءين يتدفق منهما الماء بغزارة. وتحت العرش، وإلى جانبه توجد أوانٍ أخرى ينبع منها الماء **الشكل (6)**. ترمز الأواني التي يحملها إنكي للحياة، يعود هذا الرمز إلى العصر السومري القديم، واستمر في العصور اللاحقة.

الشكل (6): طبعة ختم تصور إنكي حاملًا بيديه أوانٍ يتدفق منها الماء
(عن الأسود، http://www.abualsoof.com/inp/view.asp?ID=595)

برزت مكانة الماء كأساس للحياة من خلال آلهة أخرى، لا ترقى إلى مكانة إنكي، لكنها كانت مؤثرة في حياة الناس. من بينها ربة الينبوع التي عُثر على تمثالها–العائد إلى العصر البابلي القديم– في قصر ماري الملكي. نُحت التمثال من الحجر الكلسي الأبيض بارتفاع 1,42 م[1]، يجسد ربة الينبوع تحمل بيديها إناء الماء الفوار، رمز الرخاء[2]، مرتديةً ثوبًا نقُش عليه عددٌ من الأسماك، وبعض الخطوط المتعرجة التي ربما كانت ترمز للأنهار **الشكل (7)**

الشكل (7): تمثال ربة الينبوع المكتشف في قصر ماري الملكي
(عن Margueron J–C., 2004, pl. 67)

[1]– Margueron J.C: op. cit, P: 513.

[2]– سيرنج، فيليب: المرجع السابق، ص: 356.

وكالقطع الفنية السابقة، تتكرر في هذه القطعة رمزية الماء كأساس للحياة من خلال الخطوط التي ترمز إلى الأنهار، والأسماك وإناء الماء الفوار. استمرت هذه الرموز في العصور اللاحقة، يبدو ذلك جليًا من خلال واجهة معبد عشتار الذي بناه كاريناش (أحد الملوك الكاشيين، حكم في القرن الخامس عشر ق.م) في أوروك، التي كانت مزينة بحفر غائرة، توجد في داخلها تماثيل لآلهة بابلية على هيئة البشر، مصنوعة من الآجر المشوي المقولب، يحمل كلٌ منها الإناء الفوار، رمز الحياة **الشكل (8)**. تفصل بين التماثيل أعمدة من الآجر تزينها خطوط متعرجة[1] ترمز إلى الماء.

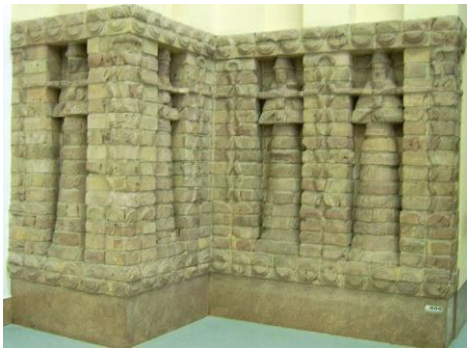

الشكل (8): واجهة معبد كاريناش في أوروك
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B1%D9%83%D8%A7%D8%A1

رابعًا: الماء يبعث الحياة في الآلهة الميتة ويروي ظمأ الموتى من البشر:

لم تقتصر أهمية الماء في جلب الخصوبة إلى الأرض الزراعية وبعث الحياة فيها، وتزويد الكائنات الحية بأسباب الحياة، إنما اتسع نطاقها ليشمل العالم السفلي، عالم الأموات، إذْ كان بمقدورها إعادة الحياة إليهم أو إرواء ظمأهم. يبرز ذلك في أسطورة نزول عشتار إلى العالم السفلي ومقتلها على يد حراس الأبواب السبعة. ولكي تعود الحياة إليها من جديد خلق الإله إنكي مخلوقين أسطوريين كوركارا وكالاتور، أعطى الأول طعام الحياة، والثاني ماء الحياة، وطلب إليهما النزول إلى العالم السفلي لينثرا الطعام ويرشا الماء على جسدها الميت ستين مرة، فتعود الحياة إليها مجددًا، وتصعد إلى الأرض[2]، وقد ورد في الأسطورة ما يأتي:

[1]- لويد، سيتون: المرجع السابق، ص: 237.

[2]- إلياد، مرسيا: المرجع السابق، ص: 88، والأسود، حكمت بشير: المرجع السابق، ص: 2.

صاغ إنكي كالاتور
وأعطى كوركارا طعام الحياة
وكالاتور ماء الحياة
واسرعا الخطى إلى العالم الأسفل
واحد منكم سينثر عليها طعام الحياة
والآخر ماء الحياة
وستعود إنانا إلى الحياة[1]

ويُعتقد أن أرواح الأموات من البشر في العالم السفلي كانت هي الأخرى بحاجة إلى الماء، لكن ليس للعودة إلى العالم العلوي كعشتار، لا بل لأنها كانت تشعر بالظمأ في عالمها السفلي الذي ستبقى فيه. السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لا تتزود الروح بالماء من العالم السفلي؟ بحسب معتقدات ما بعد الموت الرافدية، لا يتوافر في العالم السفلي إلا الماء العكر[2]، لذلك كان لزامًا عليها التزود بالماء النقي من العالم العلوي. ومما يؤكد إيمان الرافديين بهذه المعتقدات اكتشاف قبور مزودة بثقوب من الأعلى مهمتها السماح للماء المسكوب على السطح النفوذ إلى داخل القبر ليصل إلى روح الميت (كما يعتقدون). ومن الأمثلة عليها ناووس الملك آشور ناصر بال الثاني المكتشف في مدينة آشور، الذي كان مزودًا بغطاء حجري بسماكة 15 سم، لديه فتحة دائرية قطرها 5 سم. ومع اختلاف الباحثين في تفسيرها، إلَّا أنَّ الرأي الأرجح أنها كانت مخصصة لتمرير الماء المسكوب على سطح القبر إلى داخله[3]. يمكن دعم هذا الاعتقاد بأثر آخر يعود إلى العصر البابلي القديم، إنه القبر رقم 7 المكتشف في تل السيب (مدينة ميتورناة القديمة الواقعة على نهر ديالى). زود هو الآخر بفتحة خارجية كانت تتصل بآنية فخارية داخل القبر على شكل قربة (زمزمية) كانت تُملأ بالماء من هذا الثقب عبر مجرى صغير يصل بينهما[4]. تنحصر وظيفتها بتزويد الروح الظمأى بالماء النقي لتتخلص من ظمأها.

---

[1]– بوتيرو، جان؛ وكريمر، صموئيل: نوح، اسطورة إنانا عشتار، ترجمة: الأب البير أبونا، بغداد، 2005، ص: 163–166.

[2]– المرجع نفسه: ص: 103.

[3]– حنون، نائل: المدافن والمعابد في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دراسة عن الشعائر والآثار في النصوص المسمارية والآثار، جـ1، 2006، ص: 44.

[4]–حنون، نائل: المرجع السابق، ص: 98/101–103.

وهناك العديد من الأدلة الكتابية التي تؤكد ممارسة الرافديين لطقوس سكب الماء لإيصاله إلى روح الميت في العالم السفلي، من بينها نص أكادي يصف يوم إقامة المشاعر الجنائزية: **يوم القرابين الجنائزية، يوم سكب الماء (إلى أرواح الموتى)**[1]. وهناك أثر كتابي آخر يتمثل بدعاء نُقش على حجر كودور وبابلي (حجر تثبيت ملكية الأرض) جاء فيه ما يأتي: **في العلى عسى أن يطيب اسمه وفي العالم السفلي عسى أن تشرب روحه الماء المسكوب**[2].

خامسًا: الماء مُطهر:

حسب معتقدات الرافديين، يعدُّ الماء الوسيلة الأساسية للتطهير في بلاد الرافدين، والسبب في تبني هذا الاعتقاد رغبتهم في إرضاء الآلهة التي كانت تكافئهم على ذلك بإرسال الأمطار إلى الأرض[3]. وكانوا يعتقدون أيضًا أن بمقدوره تطهير المجتمع من كل مظاهر التدنيس التي نتجت عن الآثام والمعاصي المرتكبة بحق الآلهة[4]. ويُشترط فيه أن يكون نقيًا لاستخدامه في التطهير وفي طقوس الغسل. ويجب على الشخص الذي يقوم بجلبه من أي مصدر كان أن يكون طاهرًا، متحررًا من المعاصي والآثام[5].

اهتمت الحضارة الرافدية بالنظافة الجسدية، وكان الماء عنصر التطهير الرئيسي فيها. فعلى سبيل المثال كُشِفَ في كثير من المعابد الرافدية عن حمامات وأحواض تؤكد ذلك (نابادا أو تل بيدر: النصف الثاني من الألف الثالث، تل أسمر: نهاية الألف الثالث ق.م.' نوزي: العصر الآشوري الوسيط، بابل: العصر الكلدي).

والسبب في تشييد هذه المرفقات أن التطهير الجسدي كان شرطًا من شروط إقامة الطقوس الدينية في المعابد وتقديم الأضاحي والتقدمات للآلهة وإقامة الصلوات[6]. فمن خلاله يتم تنظيف الجسد، وطرد الأرواح الشريرة التي حملت القذارة إليه. لم يكن التطهير

---

[1]- المرجع نفسه: ص: 188.

[2]- المرجع نفسه: ص: 192.

[3]- الأسود، حكمت بشير: المرجع السابق، ص: 15.

[4]- زودن، فولغرام فون: مدخل الى حضارات الشرق الادنى القديم، ترجمة، فاروق إسماعيل ط1، دمشق، 2003، ص: 216.

[5]- الخطيب، عبد الرحمن؛ يونس، عبد الرحمن: المياه في حضارة بلاد الرافدين- أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، 2010، ص: 189.

[6]- الأسود، حكمت بشير: المرجع السابق، ص: 15.

مقتصرًا على الكهنة أو على زوار المعابد من العامة، بل شمل الملوك أيضًا، ففي مدينة تربيص الواقعة شمال غرب المدينة الآشورية نينوى عثر على مبنى ملكي، يوجد في داخله مسبح مقدس، كان الملك الآشوري يستخدمه بغرض الاغتسال والتطهير لطرد الأرواح الشريرة عن جسده[1].

عرفت بلاد الرافدين أنواعًا أخرى للتطهير، كتطهير الأرض المخصصة لبناء معبد، فقبل بنائه كان الرافديون يمارسون بعض الطقوس المتمثلة برش الماء المقدس لتطهيرها من كل مظاهر النجاسة والتدنيس. وكانوا يطهرون المدن أيضًا للسبب نفسه.

سادسًا: الماء يشفي من الأمراض:

ازدهرت مهنة الطب في بلاد الرافدين، وعرف الرافديون كثيرًا من التخصصات الطبية، مثل الجراحة، والأمراض النسائية، وأمراض العيون والرأس والأسنان، والأمراض الباطنية[2]. ومن المعتقدات السائدة لديهم أن المرض كان يمثل عقوبة إلهية للبشر، بسبب الآثام والذنوب التي ارتكبوها (السرقة والزنا إهمال الطقوس الدينية)[3]، أو أن الشياطين والعفاريت هي التي كانت تضع المرض في أجسادهم[4]، ومن تخترق العفاريت جسده يصبح نجسًا[5]. وللسحر الأسود دور في جلب الأمراض والشرور إلى البشر[6].

اتبع الرافديون كثيرًا من الطرائق لمعالجة المرض، وما يهم هنا تلك التي تتعلق بالماء وبآلهة الماء. من بينها التعاويذ التي كان يقوم بها كهنة الأشيبو لطرد الأرواح الشريرة من جسد المريض مستعينين بإله الماء إنكي/إيا الذي يتصف بقدرته على التطهير (لأن الماء مطهر) من كل دنس بما في ذلك الأرواح الشريرة التي تجلب المرض للإنسان[7]. فضلًا عن ذلك، استخدم الرافديون الماء بشكل مباشر للاستشفاء من المرض، وممَّا يدلُّ على ذلك معنى كلمة طبيب بالسومرية (أزو)، التي تعني الذي يعرف بالماء[8]. وكذلك

[1]– الخطيب، عبد الرحمن: المرجع السابق، ص: 11.

[2]– لابات، رينيه: الطب البابلي والآشوري، ترجمة: وليد الجادر، سومر 24، 1968، ص: 191–192.

[3]– رشيد، عبد الوهاب حميد: حضارة وادي الرافدين، ط1، دمشق، 2004، ص: 154.

[4]– يحيى، أسامة عدنان: السحر والطب في الحضارات القديمة، عمان، 2015، ص: 31.

[5]– رشيد، عبد الوهاب حميد: المرجع السابق، ص: 216.

[6]– يحيى، أسامة عدنان: المرجع السابق، ص: 106.

[7]– المرجع نفسه: ص: 141.

[8]– لابات، رينيه: المرجع السابق، ص: 193.

الأمر بالنسبة إلى معنى اسم أحد آلهة الطب (نين–أزو)، الذي يعني السيد العارف بالماء[1]. تؤكد هذه الأدلة أن الطبيب كان يستخدم الماء لمعالجة المرضى، وأن هذه المهنة ارتكزت على أسس دينية. يتوافق ذلك مع نص يرد فيه ذكر الماء، يتضمن إرشادات من إنكي لابنه الإله مردوك لمعالجة شخص مصاب بالمرض نتيجة السحر: **اذهب ابني مردوك اعطه شرابك الطاهر، شراب الحياة، دعه يأكل نبات الحياة، دعه يدهن نفسه ويغتسل**[2]. يتضح من النص أن المعالجة لا تقتصر على شرب الماء الطاهر، بل على الاغتسال به أيضًا، وكان يجري ذلك من خلال طقوس دينية تتضمن تعاويذ دينية ويُستخدم فيها الماء للتطهير[3]. ومن الأمثلة عليها طقوس معالجة المصاب بلدغة العقرب: يبدأ العلاج بتلاوة بعض الرقى على المكان المصاب، ثم يضع المريض في فمه بعض الأعشاب الجبلية مع سبع حبات قمح، ويمضغها مجتمعة، وفي النهاية يغطس في النهر سبع مرات، وفي المرة السابعة يبصق ما في فمه في النهر[4].

سابعًا: الماء مدمر وقاتل:

مع أهمية الماء في حياة البشر والحيوان، وقداسته، ودوره الكبير في بعث الحياة وتجديدها وجلب الخصوبة إلى الأرض الزراعية، وأهميته في الشفاء من الأمراض، إلا أنه، وفي الوقت نفسه، كان مدمرًا للبيوت والمعابد ومخربًا للأراضي الزراعية، وقاتلًا للإنسان والحيوان، وذلك من خلال الفيضانات التي كان يُحدثها، والتي عزاها الرافديون إلى أسباب دينية، إذْ ردوها إلى الآلهة التي كانت تتحكم بمصائر البشر.

ومن الأمثلة على ذلك نظرة السومريين إلى إله الطقس إشكور على أنه مخرب للمحصول، فقد رُمز له بالثور الوحشي الشبيه بالصاعقة التي تفسد الحقول للدلالة على ذلك[5]. والسبب في اتخاذهم هذا الموقف منه اعتمادهم اعتمادًا أساسيًا على الري الصناعي لري مزروعاتهم من خلال القنوات التي شقوها في إقليم سومر، والتي كانت

[1]– يحيى، أسامة عدنان: المرجع السابق، ص: 145.
[2]– يحيى، أسامة عدنان: المرجع السابق، ص: 143.
[3]– المرجع نفسه: ص: 147.
[4]– المرجع نفسه، ص: 231.
[5]– ادزارد، د؛ بوب، م. هـ؛ رولينغ، ف: المرجع السابق، ص: 79.

تجر المياه من نهري دجلة والفرات إلى حقولهم[1]. ربما كان موقفهم السلبي منه نسبيًا، ارتبط بالأثر السلبي التي تحدثه الأمطار القوية (إفساد للمحاصيل) في بعض السنين، فهو إله الطقس الذي كان بإمكانه أيضًا إرسال الأمطار النافعة والثلوج التي تروي الأرض، وتغذي الأنهار التي كانت تستخدم في الري الصناعي.

نُظر إلى أدد نظرة إيجابية وسلبية في آنٍ معًا[2]، تمثل دوره السلبي بالبرد القارس، وبجلب الفيضانات المدمرة[3] التي تخرب ما بناه الإنسان حارمةً إياه من الحصول على ثمار عمله[4]. ومن الأمثلة على ذلك ما أحدثه في أثناء الطوفان الذي حل ببلاد الرافدين، فقد ذكر أحد النصوص أنه أرعد داخل السحب السود، وسيطر الظلام على الدنيا، وحدثت العواصف والأعاصير وخُربت السدود[5]. وكنظيره أشكور، رمز له بالثور الوحشي الوحشي أيضًا، ربما يشير إلى دوره السلبي في إرسال الفيضانات التي كانت تتلف المحاصيل الزراعية، وتدمر البيوت، أو إلى الصاعقة التي تجلب أمطار الخير.

مع الدور الذي قام به إله الطقس في الطوفان، غير أن هذا لم يحدث بأمر منه، بل بأمر من آلهة أخرى أعلى شأنًا منه (إنليل). أتت على ذكر هذا الحدث الأساطير السومرية في بداية الأمر، لأنه حدث خلال العصر السومري الباكر. ثم أوردت أخباره الأساطير الأكادية والبابلية. نظر الرافديون إليه على أنه حدثٌ كوني، شمل العالم كلّه، ولم يقتصر على بلاد الرافدين[6]. يُعتقد أن هذا الحدث حقيقي، لكنه ليس كونيًا، إنما اقتصر على منطقة محدودة من بلاد الرافدين[7]، له علاقة بنهري دجلة والفرات اللذين كانا كانا يفيضان سنويًا في فصل الربيع –دون إحداث أي أذى– بسبب ذوبان الثلوج عند

[1]– ادزارد، د؛ بوب، م. هـ؛ رولينغ، ف: المرجع السابق، ص: 79.

[2]– المرجع نفسه: ص: 79.

[3]– أتت المادة 46 من قانون حمورابي على احتمالية تدمير أدد للحقول، يدل ذلك على حدوث فيضانات في بعض السنين أفسدت المحاصيل؛ انظر: الأمين، محمود: شريعة حمورابي، ط1، دار الوراق، لندن، 2007، ص: 23.

[4]– موسكاتي، سبتينو: الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، 1986، ص: 75.

[5]– جميل، فؤاد: الطوفان في المصادر السومرية–الآشورية–العبرانية، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط1، بيروت، 2014، ص: 17.

[6]– علي، فاضل عبد الواحد: ثم جاء الطوفان، ص: 3.

[7]– اقتصر على منطقة تقع في وادي دجلة والفرات الأسفل، طولها 400 ميل وعرضها 100 ميل، جميل، المرجع السابق، ص: 8.

منابعهما في وسط هضبة الأناضول وشرقها. غير أن الفيضان تجاوز حده في إحدى السنوات، مما أدى إلى حدوث أضرار كبيرة[1]. ومما يؤكد ذلك التنقيبات التي أجراها وولي في أور، والتي أسفرت عن اكتشاف طبقة من الصلصال يوجد خلفها ماء منحسر[2]. رأى وولي في هذه الطبقة أنها من مخلفات الطوفان[3]. قد تكون وجهة نظره صحيحة لوجود الماء خلفها، الذي فُسِّرَ بأنّه من ماء الطوفان. انتقلت رواية الطوفان الحقيقية شفهيًا من جيل إلى جيل، وأضيفت إليها أشياء جديدة (خاصة فيما يتعلق باسم بطل الطوفان الذي يختلف من رواية إلى أخرى)، فوصلت إلى الأجيال اللاحقة محرفة ومزخرفة بزخارف أسطورية[4]. ونظرًا لأهمية الطوفان كحدث عظيم من وجهة نظر الرافديين، استخدموه للفصل بين مرحلتين تاريخيتين (مرحلة ما قبل الطوفان ومرحلة ما بعد الطوفان)، وظهرت في كل منهما سلالات حاكمة حكمت في بلاد سومر[5].

وبحسب النسخ المختلفة (سومرية، أكادية، بابلية) لأسطورة الطوفان، حدث الطوفان نتيجة لقرار اتخذه الإله إنليل لتدمير البشر بسبب الضجيج الذي أحدثوه، بحيث تعذر عليه النوم[6]، ولأنهم ارتكبوا كثيرًا من الآثام والخطايا، إذ إنهم أكلوا لحوم بعضهم (إشارة إلى الظلم الذي تفشى بينهم)، وأغلقت الأم الباب بوجه ابنتها (إشارة إلى انقطاع حبل الود والتراحم بينهم). وكانت النتيجة أن جاء هذا الحدث العظيم لغسل خطاياهم والقضاء على شرورهم بتدميرهم جميعًا دون التمييز بين الصالح والطالح[7]، وكأن الهدف من وراء ذلك استبدال جيل الخطايا والذنوب بجيل آخر مخلى من الشر والخطيئة.

---

[1]- مرعي، عيد: المرجع السابق، ص: 36.

[2]- تفصل ترسبات الصلصال بين مرحلتين تاريخيتين: مرحلة جمدة نصر ومرحلة السلالات الباكرة؛ انظر: جميل، فراد: المرجع السابق، ص:12.

[3]- المرجع نفسه، ص: 8-11.

[4]- المرجع نفسه، ص: 14.

[5]- عبد العزيز، كارم محمود: أساطير العالم القديم، ط1، مكتبة النافذة، الجيزة، 2007، ص: 143.

[6]- إلياد، مرسيا: المرجع السابق، ص: 87.

[7]- سمار، سعد عبود؛ نهير، علي فاضل: مبررات العقاب الإلهي في العراق القديم، مجلة كلية التربية، واسط، العدد (12)، 2012، ص: 143.

غير أن الإله إنكي/إيا لم يكن راضيًا بذلك، وحاول التدخل لمنعه من الحدوث، لكنه أخفق. وقبل حدوثه حذر بطل الطوفان (زيسودرا في النسخة السومرية[1]، واوتنا بشتم في النسخة الأكادية[2]، وأتراخاسيس في النسخة البابلية[3]) الذي تميز بورعه وتقواه، حذره من خطورة هذا الحدث الذي سيدمر بذرة البشر[4] طالبًا منه تحضير مركب لإنقاذ الكائنات الحية مصطحبًا معه أهله وذويه[5]. حدث الطوفان واستمر مدة سبعة أيام وسبعة ليال مكتسحًا الأرض، ومدمرًا لأماكن العبادة فيها. وبانتهائه عادت الحياة إلى سالف عهدها، ونبتت النباتات، وقدم بطل الطوفان قربانًا للآلهة[6]، وحصل على الخلود مكافأة منها له لما قام به من أجل إنقاذ بذرة البشر من الزوال[7]. وممَّا يدلُّ على عظمة هذا الحدث، ما ورد عنه من أخبار في ملحمة جلجامش:

وفتحت أبواب السماء بماء منهمر
وغطى الطوفان وجه الأرض جميعًا.
وأطلقت عشتار صرخة تشبه صرخة امرأة جاءها المخاض[8]

وورد عنه أخبار كثيرة في المصادر البابلية، وممّا يلفت الانتباه تدميره لأماكن العبادة:

وغمر الطوفان في الوقت نفسه أماكن العبادة كلها[9]

من خلال هذا التقديم المختصر والموجز لأخبار الطوفان، يمكن القول: إنَّه كان مدمرًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلم يسلم منه لا بشر ولا نبات ولا حيوان، وحتى أماكن العبادة لم تسلم من شره، وأصاب الآلهة بالذعر. فلولا قوته التدميرية الكبيرة لما

---

[1]– كريمر، صموائيل: المرجع السابق، ص: 254.

[2]– هو رجل تقي وصالح، ومعنى اسمه (أوتنا بيشتيم) وجدت حياتي أو الذي رأى الحياة (كناية عن الخلود أو الحياة الأبدية)؛ انظر: نعمة، حسن: موسوعة ميثولوجيا الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994، ص: 59؛ وإلياد، مرسيا: المرجع السابق، ص: 86، وعلي، فاضل عبد الواحد: المرجع السابق، ص: 16.

[3]– علي، فاضل عبد الواحد: ثم جاء الطوفان، ص: 10.

[4]– كريمر، صموائيل: المرجع السابق، ص: 256.

[5]– علي، فاضل عبد الواحد: ثم جاء الطوفان، ص: 13.

6– عبد العزيز، كارم محود: المرجع السابق، ص: 144، 149، 164–165.

7– علي، فاضل عبد الواحد: ثم جاء الطوفان، ص: 12.

8– جميل، فؤاد: المرجع السابق، ص: 17.

9– المرجع نفسه: ص: 27.

طلب الإله إنكي/إيا إلى بطل الطوفان تحضير السفينة قبل حدوثه لإنقاذ الكائنات الحية. وممَّا يلفت النظر أيضًا أن الماء تحول من نعمة إلى نقمة، وأصبح أشبه بالسلاح بيد الآلهة، استخدمته ضد العصاة لإبادتهم وتخليص العالم من شرورهم.

ثامنًا–الماء يدين المتهم أو يثبت براءته:

تحدثنا في العنوان السابق عن الدور السلبي للماء في حياة الإنسان المتمثل بالكوارث الطبيعية التي كانت تحدثها الآلهة مرسلةً الفيضانات والأعاصير المدمرة عقابًا للبشر الذين ارتكبوا كثيرًا من الخطايا. تتكرر صورة الماء كقاتل ومهلك للبشر مرة أخرى، لكن بأسلوب مختلف، وبمناسبات أخرى، تارة في العالم السفلي، وتارة أخرى في العالم العلوي.

بالنسبة إلى العالم السفلي، ساد لدى الرافديين اعتقاد أن نهرًا يقع في المنطقة الفاصلة بين العالم العلوي (عالم الأحياء) وبين العالم السفلي (عالم الأموات)، يطلق عليه بالسومرية أي–لو–رو–جو، وفي الأكادية خوبور، أي النهر الذي يسير عكس اتجاه الإنسان، مهمته إدانة المتهمين أو إثبات براءتهم، إذ إنّه كان يجب عليهم أن يلقوا بأنفسهم فيه مكبلي الأيدي، ومن نجا وخرج سالمًا يكون بريئًا[1].

يشير هذا المعتقد إلى قضية الحساب بعد الموت في العالم السفلي، فمن كان مدانًا سيغرق في الماء ويموت، ومن كان بريئًا سوف ينجو. وعلى الأرجح المقصود من هذه الأفكار الإشارة إلى الصالحين أهل الورع والتقوى الذين ستُكتب لهم النجاة من عذاب الآخرة (النجاة من الغرق)، والطالحين أصحاب الخطايا الذين سيُعذبون ويهلكون (الغرق في النهر).

آمن الرافديون بهذه المعتقدات، فأخذوا بعض الإجراءات خشية الهلاك بعد موتهم غرقًا، وخير مثال على ذلك القوارب الطينية الصغيرة المكتشفة في مقابر مدينة إريدو (مرحلة العبيد[2])، وفي مقبرة أور الملكية، التي كان الهدف منها مرافقة الأموات إلى العالم السفلي ليستخدموها في أثناء عبورهم النهر لتُكتب لهم النجاة[3].

عرفت بلاد الرافدين اختبارًا مماثلًا للاختبار السابق للتمييز بين المجرم والبريء، لكن هذه المرة في العالم العلوي عالم الأحياء، وليس في العالم السفلي. اعتمدوا في اختبارهم

[1]– ادزارد، د؛ بوب، م. هـ؛ رولينغ، ف: المرجع السابق، ص: 169.

[2]– حنون، نائل: المرجع السابق، ص: 50.

[3]– ادزارد، د؛ بوب، م. هـ؛ رولينغ، ف: المرجع السابق، ص: 169.

هذا على النهر الذي كان بمقدوره الفصل بين المدان والبريء وتحقيق العدالة. فقد ورد في نص يُمجد نهر الفرات العظيم ما يأتي: **(نار وغضب، عظمةٌ ورهبة، أمدك بها مردوخ، أنت الذي تفصل في قضايا الناس[1])**. أشارت شريعة حمورابي أيضًا إلى هذا النوع من الاختبار، فقد ورد في المادة الثانية[2] من قانونه أنه إذا اشتكى سيد على سيد آخر بتهمة السحر، ولم يستطع إثباتها كان يجب على المشتكى عليه أن يلقي نفسه في النهر فإذا غرق كان يحق للمشتكي أن يأخذ ثروته، أمَّا إذا نجا من الغرق يحق له الاستيلاء على ثروة المشتكي الذي سيعاقب بالإعدام.

الخاتمة

يتبيّن ممَّا ورد في البحث أن الماء–حسب المعتقدات والتقاليد الرافدية– كانت له آثار إيجابية وسلبية في حياة الناس، فمن جهة هو حياة ودواء وطهارة وخصب، ومن جهة أخرى هو دمار وإعصار وقتل. لكن من خلال تعقب المعتقدات الدينية التي تتعلق به نلاحظ أن الطابع النفعي الإيجابي غلب على طابعه السلبي المدمر. يمكن الاستنتاج أيضًا أن الثروة المائية الكبيرة في بلاد الرافدين أثرت في تقاليد السكان ومعتقداتهم، فلولا تأثرهم بنهري دجلة والفرات كنبع للخصوبة والحياة، وفي العلاج والتطهير والفصل في الخصومات، لما قدسوهما، وهذا يعني أن العامل الطبيعي أثر في ثقافتهم وديانتهم. وممَّا أسهم أيضًا في إعطاء الماء بعض الصور التي علقت في الفكر الرافدي الوضع المناخي لبلاد الرافدين الذي كان متقلبًا بين هذه السنة وتلك، وبشكل خاص تلك السنة التي حدث خلالها الطوفان الذي أثر بحياة الناس وبمعتقداتهم، وانعكس على الأدب.

[1]– هايدل، الكسندر: الخليقة البابلية، قصة النشوء والتكوين عند قدماء العراقيين وانعكاساتها على العهد القديم، ترجمة: ثامر مهدي محمد، بغداد، 2002، ص: 97–98.

[2]– الأمين، محمود: المرجع السابق، ص: 13.

المراجع العربية والمترجمة:

1. ادزارد، د؛ بوب، م. هـ؛ رولينغ، ف: قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية)، في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)، تعريب: محمد وحيد خياطة، ط1، حلب، 1987.
2. إلياد، مرسيا: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، جـ1، ط1، دار دمشق، دمشق، 1986.
3. الأمين، محمود: شريعة حمورابي، ط1، دار الوراق، لندن، 2007.
4. بوتيرو، جان؛ كريمر، صموئيل: نوح، اسطورة إنانا عشتار، ترجمة: الأب البير أبونا، بغداد، 2005.
5. حنون، نائل: المدافن والمعابد في حضارة بلاد الرافدين القديمة، دراسة عن الشعائر والآثار في النصوص المسمارية والآثار، جـ1، 2006.
6. الخطيب، عبد الرحمن؛ يونس، عبد الرحمن: الماء في حضارة بلاد الرافدين، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، 2010.
7. رشيد، عبد الوهاب حميد: حضارة وادي الرافدين، ط1، دمشق، 2004.
8. زودن، فولغرام فون: مدخل الى حضارات الشرق الادنى القديم، ترجمة: فاروق إسماعيل، ط1، دمشق، 2003.
9. سمار، سعد عبود؛ نهير، علي فاضل: مبررات العقاب الإلهي في العراق القديم، مجلة كلية التربية، واسط، العدد (12)، 2012.
10. سيرنج، فيليب: الرموز في الفن- الأديان-الحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، ط1، دمشق، 1992.
11. شهد وهد، جاسم: الزراعة في العصر البابلي القديم (2004-1595)، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد (11)، العدد (3)، 2008.
12. الشواف، قاسم: ديوان الأساطير، سومر وأكد وآشور، جـ1، ط1، دار الساقي، بيروت، 1996.
13. عبد الحق، حسان: المؤثرات الدينية في الفن في الفترة الممتدة من بداية عصر الإحياء السومري إلى نهاية العصر البابلي القديم 2144-1580 ق.م، مجلة دراسات تاريخية، العددان (123-124)، جامعة دمشق، 2013.

14. عبد العزيز، كارم محمود: أساطير العالم القديم، ط1، مكتبة النافذة، الجيزة، 2007.
15. علي، فاضل عبد الواحد: ثم جاء الطوفان، سومر، المجلد (31)، 1975.
16. علي، فاضل عبد الواحد: من سومر إلى التوراة، ط2، سينا للنشر، القاهرة، 1996.
17. لابات، رينيه: الطب البابلي والآشوري، ترجمة: وليد الجادر، سومر (24)، 1968.
18. لويد، سيتون: آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزوالفارسي، ترجمة: محمد طلب، ط1، دار دمشق، 1992–1993.
19. مرعي، عيد: عبادة آلهة الخصوبة في الشرق القديم، وزارة الثقافة، دمشق، 2016.
20. موسكاتي، سبتينو: الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، 1986.
21. نعمة، حسن: موسوعة ميثولوجيا الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994.
22. هايدل، الكسندر: الخليقة البابلية، قصة النشوء والتكوين عند قدماء العراقيين وانعكاساتها على العهد القديم، ترجمة: ثامر مهدي محمد، بغداد، 2002.
23. يحيى، أسامة عدنان: السحر والطب في الحضارات القديمة، عمان، 2015.

المراجع الأجنبية:

1- Frankfort H., Lloyd C., Jacobsen T., The Gimilsin temple and the palace of the rulers at tell Asmar, the University of Chicago, oriental institute publications, volume XLIII, Chicago, Illinois, 1940.
2- Jacobsen, T: "The Waters of Ur", Iraq, Vol (22), 1960, P: 174-185.
3- Kramer S. M: "Le Rite de Mariage Sacré Dumuzi-Inanna", Revue de l'histoire et des religions, Volume (181), Numéro (2), P: 121-146.
4- Margueron J. C: Mari - Métropole de l'Euphrate. Editions Picard et ERC, Paris, 2004.
5- Rander, K: "How did the Neo-Assyrian King perceive his Land and its resources" in Rainfall and Agriculture in Northern Mesopotamia-Proceeding of Third Mos symposium (Leiden 1999), Pihans, vol (88), 2000, P: 234 - 246.